ملامح الفكر الحداثيّ في شعر عبد الله حمّادي

Features of modernist thought in Abdullah Hammadi`s poetry

الدّكتور/ عبد المجيد العتري

الأستاذ الدّكتور/ قويدر قيطون

قسم اللّغة والأدب العربيّ ـ جامعة الوادي (الجزائر)

مخبر بحوث في الأدب الجزائريّ ونقده ،جامعة الوادي.

latri-abdelmadjid@univ-eloued.Dz

تاريخ الإيداع: 2025/10/10 تاريخ القبول: 2026/08/19 تاريخ النشر: 2026/09/15

ملخص:

تقوم هذه الورقة البحثيّة على محاولة رصد بعض ملامح الفكر الحداثيّ في الشّعر الجزائريّ المعاصر، وتحديدا عند الشّاعر عبد الله حمّادي، الذي عرف بميله إلى فكرة الحداثة فكرا وإبداعا ونقدا، من خلال كتاباته الشّعريّة والنّقديّة، فهو أحد شعراء الحداثة في الجزائر المنادين بضرورة تأسيس رؤيا شعريّة جديدة متكاملة، انطلاقا من الواقع الشّعريّ الجزائريّ واحتذاء بتصوّر شعراء المشرق العربيّ للحداثة والمقاربة الغربيّة لهذا التّصوّر، من خلال تجاوز الرّاهن وتخطّي المألوف؛ لخلق مفهوم حداثيّ للخطاب الشّعريّ الجزائريّ عبر عمليّتيْ التّنظير النّقديّ والإبداع الشّعريّ،

الكلمات المفتاحية: الفكر ، الحداثة، الشّعر، الجزائريّ، حمّادي.

Abstract: This research paper attempts to identify a number of features of modernist thought in contemporary Algerian poetry, specifically in the works of the poet Abdullah Hammadi, who was known for his inclination towards the idea of modernity in thought, creativity, and criticism, through his poetic and critical writings. He is one of the modernist poets in Algeria

who advocate for the necessity of establishing a new comprehensive poetic vision, starting from the Algerian poetic reality and following the vision of the poets of the Arab Mashriq regarding modernity and the Western approach to this vision. By transcending the present and the familiar, Hammadi aims to create a modern concept of Algerian poetic discourse through the processes of critical theorization and poetic creativity.

key words: Thought, modernity, poetry, Algerian, Hammadi

مقدّمة:

يعدّ الشّاعر عبد الله حمّادي من أبرز شعراء الحداثة في الجزائر، الذين نادوا بضرورة تأسيس رؤيا شعريّة جديدة متكاملة، انطلاقا من الواقع الشّعريّ الجزائريّ؛ احتذاء بالتّصوّر الحداثيّ لشعراء المشرق والمقاربة الغربيّة لهذا التّصوّر، وذلك بتجاوز الرّاهن وتخطّي المألوف؛ لخلق مفهوم حداثيّ للخطاب الشّعريّ الجزائريّ عبر عمليّتيْ التّنظير النّقديّ والإبداع الشّعريّ، من خلال كتاباته النّقديّة "الشّعريّة العربيّة بين الاتّباع والابتداع"، "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، "مختارات من الشّعر الجزائريّ"،" أصوات من الأدب الجزائريّ"، "معجم شعراء الجزائر في العصر الحديث" و "مساءلات الفكر والأدب" ودواوينه الشّعريّة "الهجرة إلى مدن الجنوب"، "تحزّب العشق يا ليلى"، "قصائد غجريّة" ،"البرزخ والسّكّين" و"أنطق عن الهوى"، وما يؤكّد تبنّيه للفكر الحداثيّ قوله في مقدّمة ديوانه الشّعريّ "البرزخ والسّكّين": "إنّ الشّعر يقرأ إذا ما قرأ لذاته، فهو لا يروّج للأخلاق ولا للفضائل، لأنّ عالمه غير عالمهما، ولا يستعير كنهه من دين وسلطة غير سلطة الشّعر نفسه"[1].

1. الفكر الحداثيّ عند عبد الله حمّادي:

يعرف الشّاعر عبد الله حمّادي بشغفه بالتّجريب في عمليّة الإبداع الشّعريّ، ولذلك تبنّى الحداثة فكرا وإبداعا من خلال رفضه للتقليد الشّعريّ، وتجاوز كلّ ما هو مألوف من الفكر والفنّ

والثّقافة، والحداثة .كما يراها .هي "مشروع مفتوح على المطلق، لا يعرف الحدود ولا يلتزم بقيود، وغايتها ليس إدراك الحقيقة ولا البلوغ إلى غاية ما، بلْ هي ضدّ فكرة الوصول إلى غاية أو هدف، فهي بلا غاية وبلا أهداف، بلْ هي رحلة استكشاف دائمة البحث عن فتوحات جديدة، وكلّما أدركت غاية سارعت إلى تجاوزها؛ لأنّ التّجاوز هو من سمات الحداثة الجوهريّة، وغاية الحداثة ليست الوصول إلى غاية بعينها ولا إدراك حقيقة ثابتة، بلْ هي السّعي على غير منوال سابق، ورفض الاحتذاء والسّعي لإدراك ما لا يدرك"[2]،وعلى هذا التّصوّر فالحداثة تقف موقفا من التّقليد يتّسم بالرّفض والاستعلاء، وهي أقرب إلى الفكر الفلسفي منها إلى الواقع التّنظيريّ النّقدي أو العمل الفنّي، إذْ تبدو زئبقيّة الدّلالة لا تحمل غاية ولا هدفا، ولوْ أنّها لا تخلو من خلفيّات فكريّة يحملها دعاتها تجاه الواقع والموروث الثّقافي بكلّ أشكاله.

تقوم فكرة الحداثة عند عبد الله حمّادي على الرّفض والتّخطّيّ والهدم المستمرّ لكلّ ما هو تقليد .كما هو الحال عند أدونيس وأقرانه .،وقد عبّر عن ذلك بقوله في مقدّمة ديوانه "البرزخ والسّكّين": "إنّ الطّقس الشّعريّ الحداثيّ برزخ تتوحّد فيه الكائنات، وتمّحي في جلاله الفواصل والحدود بين الموجودات، ولهذا تهوي أمام أنظارنا حصون التّقليد في الشّعر والثّقافة والسّياسة، ويسقط الأصل وتتّسع آفاق المغامرة، وما هذه الأفعال الصّداميّة سوى علامة من علامات اليقظة، وأسلوب مخصوص من أساليب استعادة الإنسان الذي مات في الإنسان الذي يسعى"[3]،فهو يرى أنّ مقولات التّجاوز والرّفض والتّجديد والهدم عبر التّكثيف الدّلاليّ والإيحاءات الرّمزيّة من شأنها أن تكون السّبيل الأوحد لتحقيق كينونة الإنسان، باعتباره يشكّل ظاهرة كونيّة خاضعة للتّغيّر المستمرّ وقابلة للتّجدّد وإعادة البناء، وفكرة الحداثة عند الشّاعر تتأسّس كذلك على التّنبّؤ والتّأويل والوصول إلى الجوهر ومساءلة الكون والوجود، وتتّخذ "من التّاريخ والتّراث والزّمان والمكان مرجعيّة تستند إليها أثناء فعل الغواية الشّعريّة، ومن ثمّ مباشرة الفضح والتّجاوز والثّورة والتّمرّد على الغائب بكلّ ظواهره وأشكاله"[4].

امتزجت الفكرة الإيديولوجيّة بالنّظرة الحداثيّة في شعر عبد الله حمّادي، فكانت رؤيته الحداثيّة انعكاسا للتفكير الإيديولوجيّ، حيث جاءت مفاهيمه وتصوّراته للشّعر من منظور حداثيّ جديد يرفض التقليد، ويدعو إلى عدم تقديس القديم على حساب كلّ ما هو جديد في الفكر والإبداع، "فالانطلاق من التّراث وحده ليس كفيلا ولا يمكن أنْ يكون رخصة أو جواز سفر إلى

البقاع الجماليّة لعالم النّصّ الشّعريّ"[5]،ومع ذلك نجده يحاول التّوفيق بين الحداثة والتّراث على اعتبار أنّهما غير متناقضين، وأنّ كليهما يخدم الآخر فيقول: "الحداثة أخي القارئ ليس معناها طرح الموروث، والسّطو على أنقاضه الثّابتة بمعاول الرّدّة والتّشكّك، والوقوف منه موقف الخصم والتّضاد، إنّ الحداثة بمفهومها الصّحيح وعند من ابتكرها هي البحث المستمرّ عن إيجاد خيط التّواصل، حيث ينصهر الحاضر في الماضي ليشرق غدا مسكونا بحرارة الاستمراريّة ونبض المعاصرة"[6]وهو في هذا الأمر لا يختلف عن أدونيس في اضطراب موقفه بخصوص العلاقة بين الحداثة والتّراث، حيث تتضارب رؤاه الفكريّة وآراؤه النّقديّة في إيجاد مفهوم واضح للحداثة الشّعريّة وكيفيّة إحداث نوع من التّجاوب المستمرّ بينها وبين مقولات التّراث كنموذج من الفكر الإنسانيّ .

2. الخلفيّة الفكريّة الصّوفيّة عند عبد الله حمّادي:

يشكّل التّيّار الصّوفيّ مكوّنا أساسيّا من مكوّنات الفكر العربيّ المعاصر، وخاصّة الفكر الحداثيّ، حيث شكّل مادّة ثريّة يستقي منها الشّاعر العربيّ المعاصر فكره وثقافته؛ وفق أساليب وتقنيّات مختلفة كالرّمز والأسطورة، "والتّجربة الصّوفيّة في جوهرها محاولة وجدانيّة ذوقيّة للفكاك من قيود الواقع ونواميس المألوف؛ الارتقاء حول مدارات الكمال المنشود تواصلا مع المطلق، حيث لا تقيّد بالزّمان والمكان وما تعلّق بهما"[7]،وقد وجد الشّعر المعاصر في هذه التّجربة معينا خصبا من الإشارات الرّمزيّة والشّخصيّات النّموذجيّة، التي أسقط عليها الشّعراء أفكارهم وفلسفاتهم، كما فعل عبد الصّبور والبيّاتي مع الحلّاج وأدونيس مع النّفريّ وغيره من رموز التّصوّف.

يعتبر الشّاعر عبد الله حمّادي من أبرز الشّعراء الجزائريّين المعاصرين الذين تأثّروا بالصّوفيّة، فكان شعره يشعّ بدلالات رمزيّة مكثّفة ذات مدلولات عميقة، بهدف إيصال رسالته متجاوزا المألوف في الخطاب الشّعريّ الجزائريّ، مخترقا لغة التّواصل متقمّصا أحوال الصّوفيّين، باحثا عن لحظات السّكون الخالد والحياة البرزخيّة، من خلال عالم الحبّ الإلهيّ والفناء الرّوحيّ والارتباط الوجدانيّ، لأنّ الكتابة الشّعريّة لديه "ليست من أجل التّعبير عن تمظهرات العالم المرئيّ، بلْ هي محاولة لزعزعة العالم من خلال إعادة بنائه وفق تصوّر رؤياويّ مخصوص؛ تصوّر

يحمل وهج تجربة صوفيّة"[8]،فتجربته الصّوفيّة ثريّة لكثافة رموزها مثل قصيدة" البرزخ والسّكّين" و "يا امرأة من ورق التّوت" و "رباعيّات آخر اللّيل"، حيث يستهلّ هذه الأخيرة بمقولة صوفيّة للحلّاج "لا أظنّ من فهم كلامنا سوى من بلغ القوس الثّاني، والقوس الثّاني دون اللّوح، العارفين المسلّحين بفيض النّور المقدّس"، وهي إشارة إلى غموض التّجربة الصّوفيّة واستحالة فهمها لغير العارفين المسلّحين بفيض النّور المقدّس، ففي هذه القصيدة يتردّد رمز "اللّيل" مع توابعه الرّمزيّة، يقابله رمز "النّور" بلواحقه الدّلاليّة، ممّا يوحي بالصّراع الإنسانيّ المستمرّ قصد الكشف عن كلّ ما هو مجهول، وفيها يقول[9]:

كانت تغمرني الفتنة
وضياء الفلك موؤود على الجوديّ
وضحايا زمن مسفوك
في شبق السّلطان
رؤيا من فلق الإصباح
فاتحتي
وهجوم ليليّ يلجمه
التّقنّع والجريمة

فقد أضفى الشّاعر على هذه الأسطر الشّعريّة صبغة صوفيّة وجوديّة ،كشف من خلالها عن حالته المتأزّمة بسبب الفقد والضّياع الذي يعاينه في كلّ وقت.

اتّخذ الشّعراء الصّوفيّون من المرأة رمزا صوفيّا دلاليّا يشير إلى الحبّ الإلهيّ ،فإذا "كانت صورة المرأة بما تثيره من مظاهر الفتنة والجمال تشدّ الكائن إلى الطّبيعة بكلّ مظاهرها، فإنّها أيضا تشدّ هذا الكائن إلى الذّات المطلقة باعتبارها أصلا للجمال"[10]،وقد أخذ هذا الرّمز عند عبد الله حمّادي دلالات متعدّدة تكشف كلّها عن معاناته اليوميّة، فنراه يوظّف رمز "ليلى" الذي يعبّر به عن واقع أمّته الأليم ،فهي عنده "القناع الرّمزيّ القابل للتّشكّل في كلّ صورة يراها المحبّ، وهي المعادل الغنوصيّ للتجلّي، لأنّها رمز العفّة والجمال والأنوثة العربيّة"[11]،فليلى الشّاعر هي المحبوبة التي فقدت كلّ سعادتها، ورحلت فلم يعد قادرا على لقائها، ويتمنّى عودتها ووصلها من جديد .

تميّز الشّاعر عبد الله حمّادي في تجربته الصّوفيّة بديوانه" البرزخ والسّكّين "الذي يعجّ بالدّلالات الرّمزيّة الصّوفيّة بداية من عنوانه إلى آخر قصيدة من قصائده، كما ضمّنه توجّهه الحداثيّ؛ فكانت نظرته للتّصوّف نظرة حداثيّة، إذْ إنّ "البرزخ لدى حمّادي لا يعبّر فقط عن قصيدته "البرزخ والسّكّين"، بلْ هو عنوان التّجربة الشّعريّة الأخيرة، باعتبارها برزخا بين ما كان وما سيكون؛ بين القديم البالي والجديد الحاضر المستقبليّ"[12]،فقد كشف من خلاله عن حقيقة الشّعر الحداثيّ المستلهم من التّراث، وخاصّة الشّعر الصّوفيّ، فكان هذا الشّعر معادلا فكريّا فنّيّا لواقع الشّاعر وتجربته الشّعريّة، فكلّ قصيدة من قصائد الدّيوان تكشف عن روح الحداثة وما تشتمل عليه من رفض وتمرّد وثورة، مع ما تلتقي فيه من صلة بالموروث الفكريّ والثّقافيّ، ففي القصيدة العنوان يعبّر الشّاعر عن الرّحلة الصّوفيّة ذات البعد الحداثيّ، موظّفا رموزا ذات مدلولات بعيدة في فضاء الرّحلة العرفانيّة مثل: العروج، ترقى، المطاف، الارتقاء ،الرّاحلة، الميعاد؛ فيقول[13]:

أسافر وتسافرين
في آخر الصّيحة لكلّ جعلنا
منسكا
لا ترهقني الأحوال
الطّين والماء
النّار والهواء

تمثّل تجربة الشّاعر عبد الله حمّادي الصّوفيّة حالة شعوريّة وجدانيّة صوريّة، تريد ملامسة الفكر الصّوفي ومعايشته في زمن وواقع يختلفان عن التّجربة الفعليّة الأولى، فهي صوفيّة تعبيريّة تقوم على اللّغة الشّعريّة، وفي مقدّمتها اللّغة الرّامزة ذات التأويل المتجدّد، ولذلك فإنّ "البحث عن مظاهر الرّمز الصّوفيّ في الخطاب الشّعريّ الحمّاديّ هو بحث يتجدّد مع كلّ قراءة، ومع كلّ أفق معرفيّ، إذْ لا يمكن وبأيّ حال من الأحوال الإحاطة بالرّمز الصّوفيّ الحداثيّ من كلّ جوانبه المعرفيّة واللّغويّة"[14]،فقد كان الشّاعر يخلق الصّور الشّعريّة من منابع الرّؤيا الصّوفيّة، أيْ كان يتمثّل الفكر الصّوفيّ في ذاته دون معايشته، كما كان يلجأ إلى استغلال بعض الرّموز الصّوفيّة ذات الكثافة الدّلاليّة وتوظيفها في سياقات تعبيريّة جديدة، وبذلك لم تكن طبيعة الشعر عنده امتدادا

لحقيقة التّصوّف، "وإنّما هي محاولة للخلق والتّجديد والتّجريب في آن واحد"[15]،بمعنى أنّه اتّخذ من الفكر الصّوفيّ مطيّة لترسيخ فكرة الحداثة والتّرويج لها، وكأنّ التّصوّف سمة حداثيّة.

3. مصادر الفكر عند الشّاعر عبد الله حمّادي:

يستقي الشّاعر العربيّ المعاصر تجربته الفكريّة بمختلف ملامحها، من مصادر متعدّدة ومتقاربة ومتداخلة في علاقاتها، وفي مقدّمتها التّراث العربيّ القديم بأحداثه وشخصيّاته وهزائمه وانتصاراته، وقد كان التّراث الصّوفيّ "واحدا من أهمّ المصادر التّراثيّة؛ التي استمدّ منها شاعرنا المعاصر شخصيّات وأصوات يعبّر من خلالها عن أبعاد من تجربته، بشتّى جوانبها الفكريّة والرّوحيّة .. وحتّى السّياسيّة والاجتماعيّة، وليس غريبا أنْ يعبّر شاعرنا المعاصر عن بعض أبعاد تجربته من خلال أصوات صوفيّة، فالصّلة بين التّجربة الشّعريّة وبين التّجربة الصّوفيّة جدّ وثيقة"[16]،وتوظيف الشّاعر المعاصر للتّراث في صياغة تجربته الشّعريّة يهدف إلى التّعبير عن موقفه من الواقع بكلّ تجلّياته، كما يكشف عن دور الشّعر في بلوغ التّغيير والتّجديد وخاصّة عند الشّاعر الحداثيّ الذي اتخذ من التّراث موردا لإبراز كشوفاته الحداثيّة ،حيث أدرك "باستعماله هذه الإمكانيات أنّه قد وصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة على الإيحاء والتّأثير، ذلك إنّ المعطيات التّراثيّة تكسب لونا خاصّا من القداسة في نفوس الأمّة"[17]،وتحقّق نوعا من التّواصل الفنّيّ بين الماضي والحاضر الفكريّ والأدبيّ.

عرف الشّاعر عبد الله حمّادي شغفا كبيرا باستلهام التّراث كمصدر في إثراء تجربته الشّعريّة؛ التّراث المضيء النّابض بالحياة، فكان بذلك شاعرا تراثيّا له طريقته الخاصّة في التّعامل مع التّراث والاستفادة منه في إثراء وتنويع تجربته الشّعريّة، فعلاقته بالتّراث "هي علاقة استيعاب وتفهّم وإدراك واع للمعنى الإنسانيّ والتّاريخ، وليست بأيّ حال من الأحوال علاقة تأثّر صرف"[18]،فقد سعى إلى خلق رموز تراثيّة تميّز تجربته الشّعريّة وتفتح أفق رؤياه الحداثيّة نحو أفق مستقبليّ، بالاستناد إلى مصادر تراثيّة عميقة الدّلالة جليلة الصّياغة، تتماشى مع روح العصر وترفض التّقليد، وذلك بإحداث نوع من التّقارب والتّجاوب بين التّراث والحداثة التي يؤكّد عليها في قوله: "أستنهض التّمرّد الرّافض الكامن في ذاتي، لأتخطّى حواجز الزّمن وأبحر في وهج النّور، مكسّرا

بذلك قداسة العتمة المتخثّرة في فلك الموروث، والتي تقف في وجه المغامر ساعة الإقلاع، لأنّ الشّعر سلاح مشحون برصاص المستقبل"[19].

ومن المصادر التي استلهم منها الشّاعر مادّته الشّعريّة ومحمولاتها الفكريّة انتماؤه لوطنه الجزائر، وارتباطه به روحيّا ونفسيّا؛ وتعبيره عن ذلك تعبيرا صريحا أو إشاريّا رمزيّا في العديد من دواوينه الشّعريّة ،حيث يقول في ديوان "البرزخ والسّكّين[20]:

لا تلمني في حبّها وهواها
لست أختار ما حييت سواها
لست أختار فالجزائر لحني
منتهى الوصل أنْ أغنّي بهاها
هي عشقي ومهجتي وحياتي
هي عيني وقبلتي وصلاتي
هي تختال في الضّمير غناء
أبديّا ضفافه الإغراء
يا حبيبي وللجزائر نفسي
هي (ليلى) ولي بها وجد(قيس)

وفي فترة التّسعينيّات التي عرفت فيها الجزائر مخاضا عسيرا، خسرت خلاله الأرواح والممتلكات، تألّم الشّاعر لمصاب وطنه، رامزا له بالمرأة التي تتقاذفها الأهواء وتنهشها المطامع من كلّ جانب، فعبّر عن تفجّعه وألمه الشّديد قائلا[21]:

يا امرأة تنهشني في السّرّ
وتنشرني للموج...
منهوك سحر مدينتنا
منهوب عطر مفاتنها
ما أجمل أنْ ترسوَ حرائقنا
على شفة يسكنها المطر الدّافئ

وفي خضمّ هذه الأوضاع المؤلمة يقف الشّاعر مخاطبا الأوراس . رمز الصّمود والعنفوان والثّورة . بلغة حزينة، تحمل معاني الأسف والحسرة على ما كان فيه من ماض زاهر، وكأنّه يستذكر أمجاد الثّورة ومفاخرها في زمن انقلبت فيه الأحوال وساءت الأوضاع، فيقول متألّما[22]:

أوراس مـــاذا دهـــاك اليـــوم محتـــرق وســـافر العشـــق مـــن عينيـــك والنّســـب
هـــل تســـتحي اليـــوم إنْ غابـــت خـــواطرك تحـــت ضـــباب، وأشـــقى زنـــدك الحطـــب ؟
(...) أوراس أبحـــر...! وأبحـــر دون مـــا تعـــب إنّ المســـافة تطـــوى حـــين تصـــطحب

فالشّاعر يصاب بالخيبة واليأس، لأنّه لم ير أحلام الشّهداء والمجاهدين تتحقّق، فيستحثّ الأوراس على أنْ يرفض واقعه المزري الذي آل إليه، فالأوراس هو الجزائر بثورتها المجيدة وواقعها الرّاهن الذي يتناقض مع ما كانت عليه أثناء الثّورة وحين الاستقلال.

شغل الواقع العربيّ فكر وشعور عبد الله حمّادي كما شغل غيره من شعراء الجزائر المعاصرين، وأسهم في إثراء تجربته الشّعريّة والفكريّة، فقد استمدّ جانبا كبيرا من رؤيته الفكريّة وتجربته الشّعريّة من مآسي الأمّة العربيّة وأحداثها المتتالية، فتكوّنت لديه نزعة قوميّة، وممّا يدلّ عليها حضور القضيّة الفلسطينيّة الدّائم في شعره، باعتبارها قضيّة الحاضر المؤلم والصّراع الدّائم مع العدوّ و"لسنا في حاجة إلى أنْ نعدّد الرّوابط التي تربط بين فلسطين والجزائر منذ فجر التّاريخ العربيّ حتّى الآن، كما أنّنا لا نحتاج إلى أنْ نضرب أمثلة للمقارنة بين حالة الجزائر وحالة فلسطين، فكلا البلدين عرف الاستعمار وعرف الإرهاب بشتّى صوره، وعرف الإذابة في جنس آخر وعرف ما هو أخطر من هذا"[23]،فقد كان ذلك كلّه معينا للشّاعر يستقي منه موقفه الفكريّ ويبرز رؤيته للواقع والمستقبل، فهو دائم البحث في خضمّ رحلته الشّعريّة عمّا يخلّص هذه الأمّة من همومها ويرسم لها طريق خلاصها.

استجابة لنزعته القوميّة كتب الشّاعر قصيدته "أطفالنا ... فإلى الحجارة" التي تقاطعت أحداثها مع أحداث فلسطين وثورة الحجارة، فقد وصف واقعا مؤلما وطنيّا وعربيّا، وفيها رصد مقاومة الشّعب الفلسطينيّ ضدّ الاحتلال الصّهيونيّ، مبرزا تضحيّات أبنائه في سبيل تحرير بلادهم، وفي ذلك يقول[24]:

سحبـــــــوا الشّـــــــهيد وعلّقـــــــوا على ســـــــطـــــــوح مشتـــــــاره
أطفالنـــــــــــــــــــــــا آن الأوا ن لتنهضـــــــوا فـــــــإلى الحجـــــــاره
فـــــــإلى جـــــــذوع النّخـــــــل تعـــــــ شـــــــق فـــــــي منابتـــــــها الطّهـــــــاره
حبـــــــــل المشانـــــــــق لا يجـــــــــزّ رقـــــــــاب أسئلـــــــــة مثـــــــــاره

تمثّل الشّاعر العربيّ المعاصر وطنه وأمّته تمثّلا رمزيّا، فرمز لذلك بالمرأة وخاصّة "ليلى" التي تمثّل عند حمّادي معادلا للعشق والفتنة، وهو في توظيفه لهذه الرّمزيّة يختلف عن الشّاعر مصطفى الغماريّ، فليلى الغماريّ تمثّل العقيدة الإسلاميّة، أمّا ليلى حمّادي فهي "رمز المرأة التي تحفل بالزّمان والمكان، فهي الذّاكرة العربيّة الملأى بالنّكسات والصّراعات، والحكايات المثيرة، فهي ذات دلالة رمزيّة قوميّة؛ تصوّر الأزمة النّفسيّة التي يعيشها الشّاعر من واقع أمّته المزري"[25]،فقد أشار بلغة شعريّة رمزيّة صوفيّة إلى رفضه وتحسّره على الواقع السّياسيّ الذي بلغته الأمّة العربيّة من ذلّ وخذلان وتراجع فكريّ حضاريّ ،فليلى هي أمّته العربيّة التي يرى عجزها وضعفها، ممّا يثير في نفسه الإحباط واليأس والتّمزّق النّفسيّ ،حيث يقول في قصيدته "مذكّرة محرومة لأبي محجن الثّقفيّ"[26]:

أغبـــــاش ليلـــــى! نناجيهـــــا تودّدنـــــا بعد المحاق من الإجهاض والتّعب
ومبســـم الغـــيظ مـــن صـــحراء مزمنـــة حمراء! خضراء! من أصل بلا نسب
صـــمّاء تنـــزف حـــرّ الثّـــدي مـــن شـــفة ذرّ العزاء عليها لعنة السّحب
تنقـــاد عاريـــة .. فـــي الوحـــل مرميـــة! قد هدّها الزّحف من دوّامة السّلب

ومن المنابع الفكريّة التي أفاد منها عبد الله حمّادي تجربته الشّعريّة وأثراها التّاريخ العربيّ الإسلاميّ وخاصّة تاريخ الأندلس الذي فتن به كثيرا، فقد وظّف ذلك في شعره مستحضرا الأحداث والشّخصيّات التّاريخيّة، فكانت الأندلس حقلا ثريّا بالموضوعات والرّؤى الفكريّة والرّموز والدّلالات، لما تختزنه في الوجدان العربيّ، فقد استفاد الشّاعر من تاريخها واستخدم أحداثها كرموز في العديد من دواوينه، فكانت صدى لانفعالاته وتصوّراته بما تثيره في ذاته من شعور عميق عند مقارنتها بالواقع المعيش، وفيها يقول متسائلا متعجّبا[27]:

ماذا أقول عن أندلس الأعماق

وبدايات المواعيد القادمة من النّارفج والزّيتون
أهيَ لا تزال تحمل عطر سيف طارق
أم جنون الفرناسيّ
الموشّى بورق الرّند

ينطلق الشّاعر في العديد من قصائده من أحداث تاريخيّة دينيّة أو سياسيّة لصياغة تجربته الشّعريّة، فها هي قصيدة "البرزخ والسّكّين "تحاول "استدراج المخيّلة الإسلاميّة بمحمولاتها المقدّسة لتصوغ عبر تجلّياتها داخل النّصّ نصّا يتقاطع في كثير من مكوّناته مع المقدّس، حيث تحضر القصّة بكلّ حيثيّاتها، وتحضر الشّخوص وتتراءى لنا الأمكنة"[28] بأحداثها مفصّلة بسرديّة شعريّة تغلب عليها الظّلال الصّوفيّة، فها هو الشّاعر يستحضر حادثة الإسراء والمعراج التّاريخيّة في المخيّلة الإسلاميّة ذات الدّلالة الدّينيّة، ويعطيها زخما إنسانيّا في المحبّة والقرب، حيث يقول[29]:

تكـــوّرت حتّـــى احتويـــت الوجـــودا وألهمـــت حتّـــى افترعـــت الحـــدودا
وجئتـــك بـــالعرش طـــوع ابتسامـــة لأسقيـــك فيـــه اغتصابـــا ودودا
مـــددت لـــك الصّـــدر جســـرا لتـــرقى إلـــى "ســـدرة " الوعـــد كـــي مـــا تســـودا

فقد أضفى على الأبيات طابعا صوفيّا روحيّا يستجلي من خلاله الحادثة، ويعيدها لتجسّد له علاقة العاشق بالمعشوق في الفكر الصّوفيّ، فقد وجد في القصّة غايته الفكريّة والرّوحيّة والفنّيّة.

لقد استلهم الشّاعر عبد الله حمّادي من الطّبيعة بعضا من رؤاه الفكريّة، ورسم من خلالها جوانب من تجربته الفنّيّة، إذْ إنّه يعتبرها بمظاهرها الحيّة أو الجامدة ملاذا يؤوب إليه لتخلّصه من آهاته وأحزانه، ويفرّغ فيها شحناته الفكريّة والنّفسيّة، فتوظيف الشّاعر لعناصر الطّبيعة سبيل لتخفيف أحزانه ونسيان آلامه، فهو جزء منها يحيى بداخلها، لأنّه "في جوهره إنسان يستوعب الأشياء الموضوعة حوله، فيحيلها مصوغات ذاتيّة وجدانيّة، ثمّ لا يلبث أنْ يعيدها ثانية إلى الوجود عن طريق الفنّ؛ أشياء موضوعيّة، متداخلة، مصفّاة، مصبوغة بأصباغ نفسه وألوان ذاته وتجاربه مع الطّبيعة والمجتمع"[30]،وإنّ تعلّق الشّاعر العربيّ المعاصر بالطّبيعة وتغلغله في أسرارها سمة من سمات الحداثة، باعتباره باحثا ومكتشفا ومستلهما لكلّ جديد، وفي ذلك يقول أدونيس: "لا نستطيع أنْ نتصوّر الكون أو الطّبيعة صفحة مكشوفة واضحة، لا مجال فيها لأيّة معرفة جديدة أو كشف جديد، إنّها على العكس موضوع كشف ومعرفة لا نهاية لهما"[31].

4. ملامح الفكر الحداثيّ في شعر عبد الله حمّادي :

تميّزت الشّعريّة عند عبد الله حمّادي بفكرة التّجاوز وتخطّي المألوف، والقول بالتّجريب في عمليّة الإبداع، ولذلك تبنّى الحداثة فكرا وإبداعا من خلال رفضه للتقليد الشّعريّ، وتجاوز كلّ ما هو راهن من الفكر والفنّ والثّقافة، والتّجاوز هو مصطلح نقديّ حداثيّ؛ من سمات الحداثة الأساسيّة، يعني رفض التّقليد وتخطّي ما هو موجود، والتّطلّع إلى بلوغ عالم جديد مجهول، ذلك إنّ "مآل الحداثة الشّعريّة المعاصرة هو البحث والتّجريب المستمرّين، من أجل خلخلة البنيات الذّوقيّة والجماليّة السّائدة، لأنّ الحداثة الإبداعيّة تنطوي على قلق دائم لا يعفو عليه الزّمان، وعلى نوع من الهدم المستمرّ في الزّمن دون أنْ يتحوّل إلى بنية ثابتة، إنّها تنطوي على سؤال مفتوح لا تأتي السّنوات بالإجابة عنه مهما حبلت بالتّجارب والمعرفة "[32]،فكلّ عمل إبداعيّ جديد يمثّل تجربة جديدة، وكلّ تجربة جديدة هي تجاوز للمألوف وهدم للاحتذاء من طرف الشّاعر، والقصيدة الحداثيّة ترفض الانعكاس وتتشبّث بالخلق والإبداع، "فالشّعر الشّعر هو ما جمع في تلافيفه بين ثقة الذّات بفردانيّتها، مع تجاوز المحظور إلى استيعاب المغامرة، بحثا عن مجالات مظلمة في مساحات الذّهن والأحاسيس"[33].

اتّسم الشّعر عند عبد الله حمّادي بالسّمة الحداثيّة الصّوفيّة، ممّا نزع به نحو الغموض النّاتج عن الرّغبة الملحّة في التّجاوز وهدم الاحتذاء، فالغموض خاصّيّة حداثيّة لا تستغني عنها القصيدة الجديدة، فقد عمد شعراء الحداثة إلى كسر النّموذج القديم في التّعبير عن الذّات والواقع، والجنوح نحو الخيال الكثيف لتشكيل معان جديدة، فقد عرف "الشّاعر العربيّ هذه الرّمزيّة بتأسيسه على إنجازات الشّعر الغربيّ الحديث، والذي يقوم فيه الرّمز على الخيال المطلق، وتجاوز النّموذج المألوف وابتغاء صياغة أخرى تتناسب مع العالم الجديد، ويلتبس الرّمز بحالة دلاليّة تعدّديّة؛ تستتر بهالة كثيفة من الغموض"[34]،فالشّاعر الحداثيّ مسكون بالإغراب والعمق الفكريّ والشّعريّ يرغب في تحويل واقعه العينيّ إلى عمل فنّيّ، ويعتبر الحداثة هدما مستمرّا لجميع الصّيغ التّعبيريّة المألوفة، فكان الغموض أداته المثلى في ذلك.

يعمد الشّاعر حمّادي إلى إثارة المتلقّي "عن طريق الغموض وخروجه عن المألوف، الذي يصنع فرادة الإبداع، ويدفع المتلقّي للقلق المتجلّي في التّساؤلات والهواجس والتّخمينات، ثمّ التّنقيب

والكشف عن الحقائق الجوهريّة"[35]لبلوغ الفكرة التي يريدها وتحقيق الفرادة التي يرغب فيها، لأنّ المعاني الجاهزة .كما يرى الحداثيّون .والتّعابير المألوفة والأفكار الواضحة لا قيمة لها بالنّظر إلى التّكثيف والإيحاء والعمق والغموض، لذلك كان "الغموض هو قوام الشّعر الحداثيّ، وكانت القصيدة الحديثة تستدعي وقفة تأمّليّة عميقة؛ للوصول إلى جوهرها وفكّ دلالاتها المستعصية"[36]،وأنّ هذا التّكثيف الدّلاليّ النّاتج عن الغموض هو الذي يخرج بالشّعر الجديد عن الواقع البسيط إلى عوالم أرحب وأعمق.

ومن دلالات الفكر الحداثيّ في شعر حمّادي التّعبير عن مشاعر الحزن والألم والتّضجّر ممّا يعيشه ذاتيّا واجتماعيّا، فكان حزينا متشائما في رؤيته للواقع الذي تعيشه الإنسانيّة بصفة عامّة، وواقع الشّعوب العربيّة على وجه الخصوص، يقول في إحدى قصائده " لا يا سيّدة الإفك "[37]:

أمطرني وجع ليلى
سافرت على مقربة من فمها
أيقنت سرابا بحريًّا
يختطف طريق عنايتنا (...)
هو السّفر الممتدّ على وجعي
أسيره السّرّ
أعذبه الألم الملقى

لقد كان هذا الواقع المزري مدعاة لاغتراب الشّاعر نفسيّا، وقد عبّر عن ذلك كلّه تعبيرا رمزيّا مكثّفا، متّخذا من رمزيّة المرأة وسيلة للبوح عن حالة الاغتراب التي يعيشها، وقد حمّلها مأساته ومعاناته وغربته، ففي ديوانه "قصائد غجريّة" تتجلّى ملامح اغتراب الشّاعر عبد الله حمّادي، "فالغجريّة هي تلك المرأة التي تحمل ملامح التّاريخ العربيّ المفقود أيّام العزّ الأندلسي، حيث كانت الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أوجّ عطائها"[38]،فهو يكشف بدلالته الرّمزيّة عن الاغتراب وعدم الاستقرار النّفسيّ عندما يستذكر ماضي أمّته المجيد الذي وقف عنده عيانا.

خاتمة

أكّدت هذه الدّراسة على الحضور الفكريّ في الشّعر الجزائريّ المعاصر بخلفيّاته المتنوّعة الوطنيّة والقوميّة والإسلاميّة والحداثيّة، كما كشفت عن حياة هذا الشّعر وحيويّته ونضجه واستمرار عطائه وتماهيه مع المتغيّرات، حيث اكتسب الشّاعر الجزائريّ المعاصر قدرة فائقة على الإبداع تتجاوز مراحل التّجريب، متمكّنة من كلّ الأدوات الفنّيّة التي من شأنها أنْ ترقى بالعمليّة الإبداعيّة إلى مستويات عليا، ولذلك تشبّعت قصائد هؤلاء الشّعراء بالأبعاد الفكريّة بمختلف مظاهرها واتّجاهاتها، تعبيرا عن رفضها للواقع المفروض ورغبتها في الوصول إلى ما هو أفضل، وقد تجلّت هذه الأفكار في نصوص شعريّة تتدفّق إيحاء وكشفا.

كما أبانت عن تبنّي الشّاعر عبد الله حمّادي للفكر الحداثيّ تنظيرا وإبداعا شعريّا، من خلال اتّكائه على مقوّماتها الفكريّة والفنّيّة؛ من رفض وثورة وتمرّد وهدم وتجديد، وتكثيف في الدّلالة وإيحاء بالرّمز وتأويل، ومساءلة وتصوّف، وحدّدت مصادر هذا الفكر من تراث صوفيّ واعتزاز بالانتماء الوطنيّ، ورؤيا للواقع العربيّ المزري ورصد لأحداث التّاريخ، وافتتان بالطّبيعة ومظاهرها، كما ألمحت إلى بعض ملامح هذا الفكر الحداثيّ؛ من غموض واغتراب نفسيّ وحزن يتجلّى في أغلب قصائده.

الهوامش:

[1] .عبد الله حمّادي: ديوان البرزخ والسّكّين، المقدّمة، دار هومة،ط3،الجزائر،2002،ص 6.

[2] .عبد الله حمّادي: أسئلة الحداثة،موقع"مسارب"بتاريخ27جويلية2018على السّاعة 09:17 صباحا

[3] .عبد الله حمّادي: ديوان البرزخ والسّكّين، المقدّمة، دار هومة،ط3،الجزائر،2002،ص6.

[4] .محمّد كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، منشورات اتّحاد الكتّاب الجزائريّين، ط1، الجزائر، 2003، ص118.

[5] .بشير تاوريريت: مدارات التّنظير النّقديّ عند علي أحمد سعيد(أدونيس)،رسالة ماجستير، معهد اللّغة والأدب العربيّ، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،1999،ص216.

[6] .عبد الله حمّادي: مدخل إلى الشّعر الإسبانيّ المعاصر، المقدّمة ،المؤسّسة الوطنيّة للكتاب،ط1،الجزائر، 1985،ص8.

[7] .محمّد علي كندي: في لغة القصيدة الصّوفيّة، دار الكتاب المتّحدة،ط1،بيروت،لبنان،2010،ص84.

[8] .محمّد كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، مرجع سابق،ص128.

[9] .عبد الله حمّادي: ديوان البرزخ والسّكّين، مصدر سابق،ص131.

[10] .محمّد كعوان: التّأويل وخطاب الرّمز، قراءة في الخطاب الشّعريّ الصّوفيّ العربيّ المعاصر، مرجع سابق ص479.

[11] .محمّد كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، مرجع سابق،ص57.

[12] .

المرجع نفسه،صص106.107 .

[13] .عبد الله حمّادي:

ديوان البرزخ والسّكّين، مصدر سابق،ص119.

[14] .محمّد

كعوان: التّأويل وخطاب الرّمز، قراءة في الخطاب الصّوفيّ العربيّ المعاصر، مرجع سابق، ص521.

[15] .محمّد كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، مرجع سابق،ص22.

[16] .علي

عشري زايد: استدعاء الشّخصيّات التّراثيّة في الشّعر العربيّ المعاصر، دار الفكر العربيّ، (د ط)، القاهرة، 1997، ص105.

[17] .المرجع

نفسه، ص16.

[18] .عزّ الدّين

إسماعيل: الشّعر العربيّ المعاصر، قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، دار الفكر العربيّ، ط3، القاهرة، (د ت)، ص 30 .

[19] .عبد الله حمّادي: الشّعريّة العربيّة بين

الاتّباع والابتداع، منشورات اتّحاد الكتّاب الجزائريّين،ط1، الجزائر،2001،ص202.

[20] .عبد الله حمّادي: ديوان

البرزخ والسّكّين، مصدر سابق،ص25.26

[21] .المصدر نفسه، ص153.

[22] .عبد

الله حمّادي: ديوان تحزّب العشق يا ليلى، دار البعث، (د ط)،قسنطينة،الجزائر،1982،ص206.

[23] .عبد الله الرّكيبيّ: قضايا عربيّة من الشّعر الجزائريّ المعاصر، دار الكتاب العربيّ،ط2،الجزائر،2009، ص47.48.

[24] .عبد الله حمّادي:

ديوان البرزخ والسّكّين، مصدر سابق، ص42.

[25] .محمّد

[26] كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، مرجع سابق، ص56.

.عبد الله حمّادي: ديوان تحزّب العشق يا ليلى، مصدر سابق،ص159.

[27] .عبد الله حمّادي: ديوان أنطق عن الهوى، دار الألمعيّة،ط1،قسنطينة،الجزائر،2011،ص110.

[28] .محمّد كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، مرجع سابق،ص111

[29] .عبد الله حمّادي: ديوان البرزخ والسّكّين، مصدر سابق،ص99.

[30] .ميشال عاصي: الأدب والفنّ، بحث جماليّ في الأنواع والمدارس الأدبيّة والفنّيّة، منشورات المكتب التّجاريّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع،ط2، بيروت، لبنان،1970،ص36.

[31] .سفيان زدادقة: الحقيقة والسّراب، قراءة في البعد الصّوفيّ عند أدونيس؛ مرجعا وممارسة، منشورات الاختلاف،ط1، الجزائر، 2008،ص475.

[32] .عبد الله حمّادي: ديوان البرزخ والسّكّين ،مصدر سابق، ص9.

[33] .عبد الله حمّادي: الشّعريّة العربيّة بين الاتّباع والابتداع، مرجع سابق، ص202.

[34]. إبراهيم رمّاني: الرّمز في الشّعر العربيّ الحديث، مجلّة حوليّات،المجلّد2،العدد1،جامعة الجزائر1، 1987، ص 34.

[35]. عبد الله حمّادي: بابليو نيرودا، شاعر الشّيلي الأكبر، منشورات وزارة الثّقافة،ط1، دمشق، سوريا،1998 ،ص126

[36]. سعيد بن زرقة: الحداثة في الشّعر العربيّ، أدونيس نموذجا، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت،لبنان،2004 ، ص172.173.

[37]. عبد الله حمّادي: البرزخ والسّكّين، مصدر سابق،ص156.

[38]. محمّد كعوان: شعريّة الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، مرجع سابق،ص25.

المصادر والمراجع:

1. عبد الله حمّادي: ديوان البرزخ والسّكّين، المقدّمة، دار هومة،ط3،الجزائر،2002. 2. عبد الله حمّادي: ديوان أنطق عن الهوى، دار الألمعيّة،ط1،قسنطينة،الجزائر،2011 . 3. عبد الله حمّادي: ديوان تحزّب العشق يا ليلى، دار البعث،(د ط)،قسنطينة،الجزائر،1982 .

4. إبراهيم رمّاني: الرّمز في الشّعر العربيّ الحديث، مجلّة حوليّات،المجلّد2،العدد1،جامعة الجزائر1، 1987.

5. بشير تاوريريت: مدارات التّنظير النّقديّ عند علي أحمد سعيد(أدونيس)،رسالة ماجستير، معهد اللّغة والأدب العربيّ، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،1999 . 6. سعيد بن زرقة: الحداثة في الشّعر العربيّ، أدونيس نموذجا، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت،لبنان،2004.

7. سفيان زدادقة: الحقيقة والسّراب، قراءة في البعد الصّوفيّ عند أدونيس؛ مرجعًا وممارسة، منشورات الاختلاف،ط1، الجزائر، 2008. 8. عبد الله الرّكيبيّ: قضايا عربيّة من الشّعر الجزائريّ المعاصر، دار الكتاب العربيّ،ط2،الجزائر،2009. 9. عبد الله حمّادي: الشّعريّة العربيّة بين الاتّباع والابتداع، منشورات اتّحاد الكتّاب الجزائريّين،ط1، الجزائر،2001.

10. عبد الله حمّادي: أسئلة الحداثة،موقع"مسارب"بتاريخ27جويلية2018.

الجزائر،2001. 11. عبد الله حمّادي: بابليو نيرودا، شاعر الشّيلي الأكبر، منشورات وزارة الثّقافة،ط1،دمشق،سوريا، 1998 . 12. عبد الله حمّادي: مدخل إلى الشّعر الإسبانيّ المعاصر، المقدّمة ،المؤسّسة الوطنيّة للكتاب،ط1،الجزائر، 1985.

13. عزّ الدّين إسماعيل: الشّعر العربيّ المعاصر، قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، دار الفكر العربيّ، ط3، القاهرة، (د ت). 14. علي عشري زايد: استدعاء الشّخصيّات التّراثيّة في الشّعر العربيّ المعاصر، دار الفكر العربيّ، (د ط)، القاهرة، 1997 .

15. محمّد علي كندي: في لغة القصيدة الصّوفيّة، دار الكتاب المتّحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2010. 16. محمّد كعوان: التّأويل وخطاب الرّمز، قراءة في الخطاب الشّعريّ الصّوفيّ العربيّ المعاصر ، دار بهاء الدّين، ط1، قسنطينة، الجزائر، 2010. 17. محمّد كعوان: شعريّة

الرّؤيا وأفقيّة التّأويل، منشورات اتّحاد الكتّاب الجزائريّين، ط1، الجزائر، 2003. 18. ميشال عاصي: الأدب والفنّ، بحث جماليّ في الأنواع والمدارس الأدبيّة والفنّيّة، منشورات المكتب التّجاريّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1970 .